عقيدة إمام دار الهجرة

مالك بن أنس بن مالك

ابن أبي عامر الأصبحي

رحمه الله

(٩٣ : ١٧٩هـ)

بقلم الدكتور / محمد بن عبد الرحمن الخميّس

عقيدة إمام دار الهجرة

مالك بن أنس بن مالك

ابن أبي عامر الأصبحي

رحمه الله

(٩٣ : ١٧٩هـ)

بقلم الدكتور / محمد بن عبد الرحمن الخُميِّس

ح دار طيبة للنشر والتوزيع، ١٤١٩هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الخميس، محمد بن عبدالرحمن

عقيدة إمام دار الهجرة مالك بن أنس بن مالك. - الرياض.

٧٢ ص ؛ ١٧ X ٢٤ سم

ردمك: ٨-٣١-٨٠٠-٩٩٦٠

١- الفقه المالكي

٢- مالك بن أنس، ١٧٩هـ

أ - العنوان

ديوي ٢٥٨,٢ ١٩/٠٦٧٦

رقم الإيداع: ١٩/٠٦٧٦

ردمك: ٨-٣١-٨٠٠-٩٩٦٠

الطبعة الأولى

١٤١٩هـ - ١٩٩٨م

دار طيبة للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية - الرياض - السويدي - ش. السويدي العام - غرب النفق

ص.ب: ٧٦١٢ - رمز بريدي: ١١٤٧٢ - ت: ٤٢٥٣٧٣٧ - فاكس: ٤٢٥٨٢٧٧

المقدمــة

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء: ١].

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أما بعد: فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

ثم أما بعد: فهذه نُبَذٌ من كلام الإمام مالك رحمه الله تعالى، توضح عقيدته في التوحيد والإيمان والقدر والصحابة والصفات وغير ذلك، كما توضح مدى حرصه رحمه الله، على سد منافذ الشرك وإغلاق أبوابه، وكذلك صور ونماذج من مظاهر الشرك التي حذر منها هو وأتباعه، ومدى تشدده على أهل البدع والأهواء والخصومات في الدين.

وقد علقت على بعض هذه الفقرات بما رأيته مناسباً، وجعلت لكلٍّ فصلٍ خلاصةً تُجْمِلُ ما فيه، وأتبعتها بأسئلة للمناقشة تعظم بها الفائدة.

والله أسأل القبول، وهو من وراء القصد، وهو حسبي ونعم الوكيل.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمدٍ، وعلى آله وصحبه أجمعين

حرره

د. محمد بن عبد الرحمن الخميس

المبحث الأول

عقيدته في التوحيد

لقد تكلم الإمام مالك رحمه الله في توحيد الله تعالى، وبين أنَّ أصله إفراد الله تعالى بالعبادة، كما بين عقيدته في أسماء الله تعالى وصفاته، وجرى في ذلك على ما جرى عليه غيره من السلف رضي الله عنهم جميعاً، وذلك كما في النصوص الآتية عنه.

إن مصطلح التوحيد هو لفظ شرعي، دلت عليه سورة الإخلاص ودل عليه قول ﷺ لمعاذ لما أرسله إلى اليمن: «فليكن أول ما تدعوهم إليه إلى أن يوحدوا الله. . .».

وقد استخدم السلف هذا المصطلح كما نرى عند الإمام مالك رحمه الله، في أول النقول عنه في الباب حيث ذكر لفظ التوحيد، فدل على أنه مصطلح معروف عند السلف متداول بينهم، وليس لفظاً محدثاً كما ظن بعض المبتدعة.

(١) أخرج الهرويُّ عن الشافعيِّ قال: سُئل مالك عن الكلام والتوحيد، فقال مالك: «محال أن يُظَنَّ بالنبي ﷺ، أنه علم أمته الاستنجاء ولم يُعلمهم التوحيد، والتوحيد ما قاله النبي ﷺ: «أُمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله»(١).

«فما عصم به المال والدم حقيقة التوحيد»(٢).

التعليق:

هذا يدل على أن حقيقة التوحيد عند الإمام مالك هي إفراد الله تعالى بالعبادة، وذلك معنى كلمة لا إله إلا الله، أي لا مستحق للعبادة إلا الله تعالى. ولم يفسر التوحيد بأنه الربوبية، أو بالقدرة على الاختراع والصنع ونحو ذلك كما هي طريقة أهل الكلام.

(٢) وأخرج الدارقطني عن الوليد بن مسلم قال:

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الزكاة باب وجوب الزكاة (٣/ ٢٦٢) ح (١٣٩٩)، ومسلم في كتاب الإيمان باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله (١/ ٥١) ح (٣٢٤)، والنسائي في كتاب الزكاة باب مانع الزكاة (٥/ ١٤) ح (٢٤٤٣) جميعهم من طريق عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود عن أبي هريرة وأخرجه أبو داود في كتاب الجهاد باب على ما يقاتل المشركون (٣/ ١٠١) ح (٢٦٤٠) من طريق أبي صالح عن أبي هريرة.

(٢) ذم الكلام (ق - ٢١٠).

«سألت مالكًا والثوري والأوزاعي والليث بن سعد عن الأخبار في الصفات، فقالوا: أمرروها كما جاءت»[1].

التعليق:

لقد فهم أهل التفويض من مثل هذه النصوص عن السلف، أنهم كانوا يفوضون في صفات الله تعالى، ولا يفهمون ما دلت عليه من المعاني، وهذا غير صحيح، فإن السلف كانوا يفهمون حقيقة المعاني، لكنهم كانوا يفوضون الكيفية لله تعالى، لأنها غيب لا يدرك بالعقل، وهذا المنهج واضح جداً في النص الذي سوف يأتي عن الإمام مالك رحمه الله في تفسير الاستواء على العرش.

إثبات الرؤية:

(٣) وقال ابن عبد البر: «سئل مالك: أيُرى الله يوم القيامة؟ فقال: نعم، يقول الله عز وجل: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣]. وقال لقوم آخرين: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥]»[2].

---

(١) أخرج هذا الأثر الدارقطني في الصفات ص ٧٥، والآجري في الشريعة ص ٣١٤، والبيهقي في الاعتقاد ص ١١٨، وابن عبد البر في التمهيد (٧/ ١٤٩).

(٢) الانتقاء ص ٣٦.

وأورد القاضي عياض في ترتيب المدارك[1] عن ابن نافع[2] وأشهب[3] قالا: وأحدهم يزيد على الآخر يا أبا عبد الله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ ينظرون إلى الله؟ قال: نعم بأعينهم هاتين؛ فقلت له: فإن قوماً يقولون: لا يُنْظَر إلى الله، إن ناظرة بمعنى: منتظرة إلى الثواب[4]. قال: كذبوا بل يُنْظَر إلى الله، أما سمعت قول

---

(١) (٢/ ٤٢).

(٢) الذي يروي عن الإمام مالك باسم ابن نافع رجلان، أما الأول فهو عبد الله بن نافع بن ثابت الزبيري أبو بكر المدني، قال عنه ابن حجر: «صدوق مات سنة ٢١٦ هـ) وأما الثاني فهو عبد الله بن نافع بن أبي نافع المخزومي مولاه أبو محمد المدني، قال عنه ابن حجر: ثقة صحيح الكتاب في حفظه لينّ، مات سنةَ ٢٠٦ هـ وقيل بعدها»، تقريب التهذيب (١/ ٤٥٥- ٤٥٦)، وتهذيب التهذيب (٦/ ٥٠-٥١).

(٣) هو أشهب بن عبد العزيز بن داوود القيسي أبو عمر المصري قال عنه ابن حجر: «ثقة فقيه مات سنة ٢٠٤هـ» تقريب التهذيب (١/ ٨٠) انظر ترجمته في تهذيب التهذيب (١/ ٣٥٩).

(٤) في هذا التأويل ورد الإمام مالك عليه، دليل على أن التأويلات البدعية وصرف النصوص عن ظاهرها، قد ظهر في عهد هؤلاء الأئمة، وليس بعدهم كما ظن البعض، ولو كان هذا التأويل مشروعًا أو سائغاً ما رده الإمام مالك رحمه الله ولا كذب أهله، والتأويل المشروع عند السلف كان يَرِدُ علي أحد معنيين:

الأول: التفسير.

الثاني: عاقبة الشيء وما يؤول إليه. لكن نصوص الصفات أجروْها على حقيقتها، ولم يؤولوها التأويل الذي هو بمعنى صرف اللفظ عن ظاهر معناه.

موسى عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ...﴾ [الأعراف: ١٤٣] أفترى موسى سأل ربه محالاً؟ فقال الله: ﴿لَن تَرَانِي...﴾ [الأعراف: ١٤٣] أي في الدنيا لأنها دار فناء، ولا ينظر ما يبقي بما يفنى، فإذا صاروا إلى دار البقاء نظروا بما يبقى إلى ما يبقى وقال الله: ﴿كَلاَّ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥].

التعليق على هذا النص المبارك:

لقد بين إمام دار الهجرة في كلامه هذا عقيدة السلف في رؤية المؤمنين ربهم بعيونِ أبصارِهم، ورد على الفرقتين من المعطلة:

الأولى: الجهمية الأولى والمعتزلة: فإنهم قد أنكروا الرؤية وحرفوا نصوصها، وقالوا رؤية الله مستحيلة؛ لأن الرؤية تقتضي أن يكون المرئي في جهة من الرائي والله ليس في جهة العلو ولا في جهة أخرى؛ وقولهم هذا باطل عقلاً ونقلاً.

أما عقلاً فلأن الله تعالى موجود وهو في جهة العلو فلا مانع من رؤيته.

وأما نقلاً فقد تواترت نصوص الكتاب والسنة الصريحة المحكمة الصحيحة على هذه المسألة. والدافع لهؤلاء المعطلة

على إِنكار الرؤية إِنكارهم لعلو الله تعالى وتعطيلهم لهذه الصفة فقولهم في إِكار صفة العلو وأن الله تعالى لا فوق ولا خارج العالم ولا داخله ولا متصل به ولا منفصل عنه هذيان محض لا يقره عقل ولا نقل ولا فطرة ولا إِجماع؛ وكل هذه الحجج تدل على أن الله تعالى فوق عرشه عال على خلقه.

فإِذا ثبت فساد قولهم في تعطيل صفة العلو تبين فساد قولهم في إِنكارهم للرؤية لأن المبني على الفاسد فاسد، وذلك أن فساد الأصول يستلزم فساد الفروع.

الفرقة الثانية: هي الماتريدية والأشعرية.

فإِنهم اعترفوا بإِثبات الرؤية ظاهراً لما رأوا نصوص الكتاب والسنة المتواترة في الرؤية؛ فاعترفوا بإِثبات الرؤية على رغم أنوفهم.

ولكنهم لما سايروا أهل الجحود من الجهمية المعطلة المعتزلة في إِنكار علو الله تعالى وتعطيل هذه الصفة الفعلية التي تظافرت عليه براهين العقل والنقل والإِجماع والفطرة جميعاً في أن واحد.

قالوا: إِن المؤمنين يرون ربهم بعيون رؤوسهم ولكن بدون

مواجهتهم لله وبدون مقابلتهم لله وبدون المسافة وبدون أن يكون الله تعالى فوقهم؛

فإن الله تعالى لا فوق العالم ولا في جهة أخرى ولا متصل بالعالم ولا منفصل عنه ولا خارج عن العالم ولا داخل فيه.

فجاؤوا بسفه أشد من سفه المعتزلة، حيث جعلوا الرؤية مستحيلة ممتنعة لهذه القيود الباطلة فرد عليهم المعتزلة وأئمة السنة في آن واحد وقالوا لهم إن قولكم بإثبات الرؤية مع نفي العلو هذيان وسفسطة وسفة؛ فانتبه بعض عقلاء الماثريدية والأشعرية إلى هذا فقالوا ليس بيننا وبين المعتزلة خلاف فكلنا منكرون للرؤية البصرية وإنما هذه الرؤية نوع من العلم والانكشاف. راجع منهاج السنة ٣/ ٣٤٠ - ٣٤١ وتلبيس الجهمية ٧٢ - ٧٨.

القول في الاستواء:

(٤) وأخرج أبو نعيم عن جعفر بن عبد الله قال: «كنا عند مالك بن أنس فجاء رجل فقال: يا أبا عبد الله، الرحمن على العرش استوى، كيف استوى؟

فما وجد[1] مالك من شيء ما وجد من مسألته، فنظر إلى الأرض وجعل ينكت بعود في يده حتى علاه الرحضاء - يعني العرق - ثم رفع رأسه ورمى بالعود، وقال: الكيف منه غير معقول، والاستواء منه غير مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة وأظنك صاحب بدعة وأمر به فأخرج »[2].

التعليق:

الظاهر أن الإمام مالكًا قد شعر من السائل بأنه صاحب هوى أو يسأل متعنتًا، فلهذا أنكر عليه، وأمر به فأُخرِج ونعته بأنه صاحب بدعة، وهذا دليل على شدة إنكاره رحمه الله على أهل البدع، وقوله بأن الكيف غير معقول أي لا يستطيع

---

(١) جاء في لسان العرب (٣. ٤٤٦) (وَجَدَ عليه في الغضب يجد ويجدُ وجداً مَوْجِدَة ووجداناً غضب، وفي حديث الإيمان أني سائلك فلا تجد عليّ، أي لا تغضب من سؤالي).

(٢) الحلية (٦/ ٣٢٥، ٣٢٦) وأخرجه أيضاً الصابوني في عقيدة السلف أصحاب الحديث ص ١٧، ١٨، من طريق جعفر بن عبد الله عن مالك وابن عبد البر في التمهيد (٧/ ١٥١) من طريق عبد الله بن نافع عن مالك والبيهقي في الأسماء والصفات ص ٤٠٨. من طريق عبد الله بن وهب عن مالك قال الحافظ بن حجر في الفتح (١٣/ ٤٠٦، ٤٠٧) إسناده جيد وصححه الذهبي في العلو ص١٠٣.

العقل علم كيفيته، والاستواء غير مجهول، أي غير مجهول المعنى، بل نعرفه من لغتنا التي نزل بها القرآن والإيمان به أي بما دل عليه من إثبات الاستواء الحقيقي لله بمعنى العلو والاستقرار والارتفاع على العرش.

تنبيه:

لقد بين الإمام مالك - رحمه الله تعالى - في كلامه هذا أموراً مهمة في الاعتقاد وهي ثلاثة:

الأول: بيان وجوب الإيمان لجميع صفات الله تعالى بلا تمثيل ومنها الاستواء. وهذا رد على الجهمية المعطلة وأقرانهم من المعتزلة والماتريدية والأشعرية النافين لعلو الله على خلقه المنكرين لاستواء الله على عرشه.

الثاني: بيان أن معاني صفات الله تعالى معروفة معلومة مفهومة، وهذا رد على المفوضة من الأشعرية والماتريدية وغيرهم الذين زعموا أن مذهب السلف هو التفويض في المعنى والكيف جميعاً، وأن السلف لم يكونوا يعرفون معاني نصوص صفات الله تعالى ولم يفهموا المراد منها، وهذا في الحقيقية افتراء على السلف وتجهيلهم بالكتاب والسنة، بل الصواب أن السلف أعلم الناس بمعاني صفات الله تعالى

والمراد منها .

الثالث : بيان أن كيفية الصفات غير معلومة لنا لأن الكيفية من دائرة الغيب فلا يجوز لنا السؤال عنها ولهذا قال والسؤال عن الكيف بدعة لأن من كيّف صفة في صفات الله تعالى فقد شبهه بالمخلوق .

القول في القرآن وأنه كلام الله غير مخلوق :

(٥) وأخرج أبو نعيم عن يحيى بن الربيع قال : « كنت عند مالك بن أنس ودخل عليه رجل فقال : يا أبا عبد الله ، ما تقول فيمن يقول القرآن مخلوق؟

فقال مالك : زنديق[١] فاقتلوه ، فقال يا أبا عبد الله إنما أحكي كلاماً سمعته ، فقال : لم أسمعه من أحد إنما سمعته منك ، وعظم هذا القول »[٢] .

---

(١) الزنديق : كلمة معربة عن الفارسية استعملها المسلمون أولا في الدلالة على القائلين بالأصلين النور والظلمة على مذهب المانوية وغيرهم ، ثم اتسع معناها عندهم فشمل الدهريين والملحدين وسائر أصحاب المعتقدات الضالة بل أطلق على المتشككين وكل متحرر عن أحكام الدين فكرًا وعملاً .

انظر الموسوعة المُيسرة (١ / ٩٢٩) وتاريخ الإلحاد لعبد الرحمن بدوي ص ١٤ ، ٣٢ .

(٢) الحلية (٦ / ٣٢٥) وأخرجه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنَّة =

التعليق:

ويطلق «الزنديق» على المبتدع الذي ألحد في أسماء الله تعالى وصفاته وعطلها كلها أو بعضها وحرف نصوصها كلها أو بعضها كالجهمية الأولى ثم المعتزلة ثم الماتريدية والأشعرية أو كالصوفية الحلولية والاتحادية أو القبورية، ولم يبال أئمة السنة في إطلاق «الزنديق» و«الزنادقة» على هؤلاء فهذا مالك إمام دار الهجرة قد أطلق ذلك عليهم، وقال الإمام أبو يوسف: «من طلب الدين بالكلام تزندق» رواه اللالكائي في شرح اصول الاعتقاد ١ /١٤٧، وقال في المعتزلة: «إنهم زنادقة» انظر أصول الدين للبغدادي ٣٠٨، وقال الإمام أحمد: «علماء الكلام زنادقة» انظر مجموع الفتاوى ٦ /٢٤٣، وقال الدارمي: «ما يعرف في الإسلام زنادقة غير هؤلاء الجهمية» الرد على الجهمية ١١٢، ١١٣، ١١٦، ١٠٢، ١١٠، ومن أعظم زندقة هؤلاء الجهمية والمعتزلة والماتريدية والأشعرية إنكارهم لعلو الله تعالى وقولهم بخلق القرآن، وتعطيلهم لنزول الله تعالى إلى

= والجماعة (١/ ٢٤٩) من طريق أبي محمد يحيى بن خلف عن مالك، وأورده القاضي عياض في ترتيب المدارك (٢. ٤٤).

السماء الدنيا .

(٦) وأخرج ابن عبد البر عن عبد الله بن نافع قال : « كان مالك بن أنس يقول: من قال القرآن مخلوق يوجع ضرباً ويحبس حتى يتوب »[١] .

التعليق :

لقد حكم رحمه الله، على من قال القرآن مخلوق بأنه زنديق، ومرة حكم عليه بقتله، ومرة حكم بضربه وحبسه حتى يتوب، وهذا دليل على شدة إنكاره رحمه الله على أهل البدع، وحرصه على مواجهتها، والقضاء عليها .

وفيه ردٌ كذلك على على من زعم أن القرآن مخلوق، وأنه عبارة عن كلام الله النفسي، وأن هذا القرآن العربي ليس كلام الله على الحقيقة؛فإن هذه الأباطيل من أعظم الزندقة والإلحاد في صفات الله تعالى.

فإن بدعة هؤلاء مركبة وأشنع من بدعة الجهمية الأولى والمعتزلة .

---

(١) الانتقاء ص ٣٥ .

فإن أولئك الأوائل كانوا يقولون ببدعة القول بخلق القرآن.

وأما هؤلاء فقد ابتدعوا ببدعة الكلام النفسي مع بدعة القول بخلق القرآن، والله المستعان على ما يصفون.

(٧) وأخرج أبو داوود عن عبد الله بن نافع قال: «قال مالك: الله في السماء وعلمه في كل مكان»[1].

التعليق:

هذا كذلك إثبات لما عليه أهل السنة والجماعة، من أن الله في السماء وعلمه شامل لكل الكائنات، وليس كما زعم أهل التعطيل من المعتزلة والماتريدية والأشعرية أن الله تعالى لا فوق العالم ولا تحته ولا في جهة من الجهات الست، ولا داخل العالم ولا خارجه ولا متصل بالعالم ولا منفصل عنه، وليس أيضاً كما زعمته بعض الجهمية والصوفية: أن الله في كل مكان، أو أن الله في كل شيء، أو أن الله كل شيء كما

---

(١) رواه أبو داوود في مسائل الإمام أحمد ص ٢٦٣ وأخرجه عبد الله بن أحمد في السنة ص ١١ الطبعة القديمة وابن عبد البر في التمهيد (٧/ ١٣٨).

يزعمه الحلولية والاتحادية؛ بل الصحيح الحق والواضح الذي يدل عليه العقل والنقل والفطرة والإجماع:

أن الله تعالى فوق عرشه عال على خلقه، وأن علمه وقدرته وملكه في كل مكان.

الخلاصة:

١- التوحيد عند الإمام مالك في أصله: إفراد الله تعالى بالعبودية.

٢- يثبت مالك لله تعالى كُلَّ ما ثبت من الصفات الحسنى في الكتاب والسنة، مع البعد عن التأويل، وعن صرف النصوص عن ظاهرها.

٣- يثبت رحمه الله الاستواء لله، والرؤية في الآخرة.

٤- القرآن كلام الله غير مخلوق، كما نص عليه مالك وغيره.

٥ - يثبت - رحمه الله - أن الله فوق عباده عال على خلقه وأنه في السماء وأن علمه في كل مكان.

المناقشة:

س ١ : ما أصل التوحيد عند الإمام مالك؟

س ٢ : ما موقف الإمام مالك رحمه الله من نصوص الصفات؟

س٣ : تكلم بإيجاز عن رأيه في مسألة الرؤية.

س٤ : ما قول مالك في خلق القرآن؟

* * *

المبحث الثاني

عقيدة الإمام مالك في القدر

لقد ثبت عن الإمام مالك نصوص كثيرة في مسألة القدر، وكلها تثبت ما كان عليه رحمه الله، من إثبات قدر الله تعالى، بجميع مراتبه الأربعة، شأنه في ذلك شأن غيره من علماء السلف، فمن ذلك:

إثبات المشيئة والخلق:

(١) أخرج أبو نعيم عن ابن وهب[١] قال: «سمعت مالكًا يقول لرجل سألتني أمس عن القدر؟ قال: نعم، قال: إن الله تعالى يقول: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾.

[السجدة: ١٣]

فلا بد أن يكون ما قال الله تعالى»[٢].

---

(١) هو عبد الله بن وهب القرشي مولاهم المصري قال عنه ابن حجر: «فقيه ثقة حافظ عابد مات سنة ١٩٧هـ»، تقريب التهذيب (١/ ٤٦٠).

(٢) الحلية: (٦/ ٣٢٦).

أفعال الخير والشر مخلوقة:

(٢) وقال القاضي عياض: «سئل الإمام مالك عن القدرية: مَنْ هم؟ قال: من قال: ما خلق المعاصي، وسُئل كذلك عن القدرية؟ قال: هم الذين يقولون إن الاستطاعة إليهم، إن شاءوا أطاعوا، وإن شاءوا عصوا»[١].

حكمه في القدرية:

(٣) وأخرج ابن أبي عاصم عن سعيد بن عبد الجبار قال: «سمعت مالك بن أنس يقول: رأيي فيهم أن يستتابوا فإن تابوا وإلا قتلوا - يعني القدرية -»[٢].

(٤) وقال ابن عبد البر: «قال مالك: ما رأيت أحداً من أهل القدر إلا أهل سخافة وطيش وخفة»[٣].

(٥) وأخرج ابن أبي عاصم عن مروان بن محمد الطاطري قال: «سمعت مالك بن أنس يسأل عن تزويج

---

(١) ترتيب المدارك (٢/ ٤٨)، وانظر شرح أصول اعتقاد أهل السُّنَّة والجماعة (٢/ ٧٠١).

(٢) السنة لابن أبي عاصم (١/ ٨٧، ٨٨)، وأخرجه أيضاً أبو نعيم في الحلية (٦/ ٣٢٦).

(٣) الانتقاء ص ٣٤.

القدري؟ فقرأ: ﴿ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ... ﴾ [البقرة: ٢٢١]...»[1].

رد شهادة أهل البدع والأهواء:

(٦) وقال القاضي عياض: قال مالك: لا تجوز شهادة القدري الذي يدعو[2]، ولا الخارجي والرافضي»[3].

لا يصلى خلف القدرية:

(٧) وقال القاضي عياض: سُئل مالك عن أهل القدر أنكف عن كلامهم؟ قال: نعم إذا كان عارفًا بما هو عليه، وفي رواية أخرى قال: لايصلى خلفهم، ولا يقبل عنهم الحديث، وإن وافيتموهم في ثغر فأخرجوهم منه»[4].

---

(١) السنة لابن أبي عاصم (١/ ٨٨) الحلية (٦/ ٣٢٦).

(٢) يدعو إلى بدعته.

(٣) ترتيب المدارك (٢/ ٤٧).

(٤) ترتيب المدارك (٢/ ٤٧).

الخلاصة:

١- الإمام مالك رحمه الله يثبت القدر الإلهي بجميع مراتبه.

٢- أفعال العباد من خير وشر كلها مخلوقة لله عز وجل.

٣- كان رحمه الله شديداً على القدرية، فرد شهادتهم، ولم يجز الصلاة خلفهم.

المناقشة:

س ١: ما موقف الإمام مالك من مسألة خلق أفعال العباد؟

س٢: هل يثبت مالك القدر بجميع مراتبه؟

س٣: ما موقف الإمام مالك من فرقة القدرية؟

* * *

المبحث الثالث

عقيدة الإمام مالك في الإيمان

الإيمان قول وعمل يزيد وينقص:

تكلم الإمام مالك رحمه الله كغيره من علماء السلف في إثبات أن الإيمان قول وعمل، وأنه يزيد وينقص، وقصدهم بذلك الرد على منكري ذلك من أهل البدع، الذين نفوا زيادة الإيمان ونقصانه، وأخرجوا الأعمال من مسمى الإيمان، فجعل الأئمة هذا الباب من أصولهم كما نرى هنا، فقد :

(١) أخرج ابن عبد البر عن عبد الرزاق بن همام قال: «سمعت ابن جريج[١] وسفيان الثوري ومعمر بن راشد وسفيان بن عيينة ومالك بن أنس يقولون: الإيمان قول وعمل يزيد وينقص»[٢].

---

(١) هو عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج الرومي الأموي مولاهم المكي، قال عنه الذهبي: «الإمام الحافظ فقيه الحرم أبو الوليد» مات سنة ١٥٠هـ، تذكرة الحفاظ (١/ ١٦٩)، وانظر ترجمته في تاريخ بغداد (١٠ / ٤٠٠).

(٢) الانتقاء ص ٣٤.

(٢) وأخرج أبو نعيم عن عبد الله بن نافع قال: «كان مالك بن أنس يقول: الإيمان قول وعمل»[١].

رده على المرجئة:

(٣) وأخرج ابن عبد البر عن أشهب بن عبد العزيز قال: قال مالك: فقام الناس يصلون نحو بيت المقدس ستة عشر شهراً، ثم أُمروا بالبيت الحرام فقال: الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ...﴾ [البقرة: ١٤٣] أي صلاتكم إلى بيت المقدس، قال مالك: وإني لأذكر بهذه قول المرجئة: إن الصلاة ليست من الإيمان»[٢].

---

(١) الحلية (٦/ ٣٢٧).

(٢) الانتقاء ص ٣٤.

الخلاصة:

يرى الإمام مالك رحمه الله أن الإيمان قول وعمل، وأنه يزيد وينقص وهذا هو مذهب السلف رحمهم الله تعالى.

المناقشة:

س١- ما هو الإيمان عند الإمام مالك؟ وهل يزيد وينقص؟

س٢- هات دليلاً من القرآن استدل به مالك على أن العمل من الإيمان؟

* * *

المبحث الرابع

عقيدة الإمام مالك في الصحابة

لا حق في الفيء لمبغض الصحابة:

حرص الإمام مالك رحمه الله كغيره من الأئمة على ذكر عقيدته في الصحابة ضمن أصوله التي نص عليها، وذلك بعد أن ظهر الوقوع في الصحابة، والقدح فيهم، والحط من شأن أبي بكر وعمر وغيرهما رضي الله عنهم جميعاً، وكل ذلك بسبب الباطنية والناصبة، فمن هنا وجد الأئمة لزاماً عليهم إظهار القول الحق في شأن الصحابة، وهذا ما فعله الإمام مالك رحمه الله كما سنرى، فقد أخرج أبو نعيم عن عبد الله العنبري[1] قال: «قال مالك بن أنس: من تَنَقَّصَ أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ، أو كان في قلبه عليهم غِلٌّ، فليس له حق في فيء المسلمين، ثم تلا قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ

---

(١) هو عبد الله بن سوار بن عبد الله العنبري البصري القاضي، قال عنه ابن حجر: «ثقة مات سنة ٢٢٨هـ» وقيل غير ذلك، تقريب التهذيب (١/ ٤٢١)، وتهذيب التهذيب (٥/ ٢٤٨).

جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا . . .﴾ [الحشر: ١٠]. فمن تنقصهم أو كان في قلبه عليهم غِلٌّ، فليس له في الفيء حق»(١).

حكمه فيمن يبغضهم أو يتنقصهم:

(٢) وأخرج أبو نعيم عن رجل من ولد الزبير(٢) قال: «كنا عند مالك فذكروا رجلاً يتنقص أصحاب رسول الله ﷺ، فقرأ مالك هذه الآية: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ . . .﴾ حتى بلغ: ﴿يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ . . .﴾ [الفتح: ٢٩]. فقال مالك: «من أصبح في قلبه غيظ على أحد من أصحاب رسول الله ﷺ، فقد أصابته الآية»(٣).

---

(١) الحلية (٦/ ٣٢٧).

(٢) الذي تتلمذ علي مالك وسمع منه من ولد الزبير بن العوام هو عبد الله بن نافع بن ثابت بن عبد الله بن الزبير بن العوام، وقد تقدم التعريف به ومصعب بن عبد الله بن مصعب، وسيأتي التعريف به.

(٣) الحلية (٦/ ٣٢٧).

تفضيله بين الصحابة:

(٣) وأورد القاضي عياض عن أشهب بن عبد العزيز قال: «كنا عند مالك إذ وقف عليه رجل من العلويين، وكانوا يقبلون على مجلسه فناداه: يا أبا عبد الله فأشرف له مالك، ولم يكن إذا ناداه أحد يجيبه أكثر من أن يشرف برأسه، فقال له الطالبي: إني أريد أن أجعلك حجة فيما بيني وبين الله، إذا قدمت عليه فسألني، قلت له: مالك قال لي.

ـ فقال له: قُل.

ـ فقال: من خير الناس بعد رسول الله ﷺ؟

ـ قال: أبو بكر، قال العلوي: ثم مَن؟ قال مالك: ثم عمر. قال العلوي: ثم مَن قال: الخليفة المقتول ظلماً، عثمان. قال العلوي: والله لا أجالسك أبداً.

ـ قال له مالك: فالخيار إليك»[١].

---

(١) ترتيب المدارك (٢/ ٤٤، ٤٥).

الخلاصة:

١- يرى الإمام مالك وجوب محبة الصحابة جميعاً، وعدم انتقاصهم، وعدم بغض أي واحد منهم، رضي الله عنهم وعنا جميعاً.

٢- يفضل مالك الخلفاء الأربعة على غيرهم، وذلك حسب ترتيبهم في الخلافة.

المناقشة:

س ١: ما موقف الإمام مالك رحمه الله تعالى، من الصحابة؟

س٢: ما حكمه فيمن يبغض الصحابة وينتقصهم؟

س٣: من هم أفضل الصحابة عند الإمام مالك رحمه الله؟

* * *

المبحث الخامس

نهيه عن الخصومات والأهواء والبدع في الدين

نهيه عن علم الكلام:

كان الإمام مالك رحمه الله تعالى، من أشد الناس نهياً عن الاشتغال بعلم الكلام وعن مجالسة المتكلمين، وكان يرى أنه يورث الشك والحيرة والاضطراب، وأنه يؤدي إلى الزندقة، وأنه مخالف لما كان عليه الأولون، فمن هنا كثر نهيه عنه كما ثبت فيما:

(١) أخرج ابن عبد البر عن مصعب بن عبد الله الزبيري[١] قال: «كان مالك بن أنس يقول: الكلام في الدين أكرهه ولم يزل أهل بلدنا يكرهونه وينهون عنه، نحو الكلام في رأي جهم والقدر وكل ما أشبه ذلك، ولا يحب الكلام

(١) هو مصعب بن عبد الله بن مصعب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير بن العوام الأسدي المدني نزيل بغداد قال عنه ابن حجر: «صدوق عالم بالنسب مات سنة ٢٣٦هـ» تقريب التهذيب (٢/ ٢٥٢)، وانظر ترجمته في تهذيب التهذيب (١٠/ ١٦٢).

إلا فيما تحته عمل، فأما الكلام في دين الله، وفي الله عز وجل فالسكوت أَحَبُّ إِليَّ لأني رأيت أهل بلدنا ينهون عن الكلام في الدين إلا فيما تحته عمل»[1].

التعليق:

كلام الإمام مالك هذا فيه دليل واضح على أن السلف كانوا يكرهون جداً كلام الجهم والقدرية والخوض في أمور الكلام المنهي عنه.

وبالرغم من هذا فقد انتشرت أراء جهم وغيره بين بعض المنتسبين في الفروع إلى الأئمة، حتى من بعض المنتسبين لمالك رحمه الله تعالى.

الرجاء لمن ترك علم الكلام:

(٢) وأخرج أبو نعيم عن عبد الله بن نافع قال: «سمعت مالكًا يقول: لو أن رجلاً ركب الكبائر كلها بعد ألا يشرك بالله ثم تخلى من هذه الأهواء والبدع - وذكر كلاماً - دخل الجنة»[2].

---

(١) جامع بيان العلم وفضله ص ٤١٥، ط/ دار الكتب الإسلامية.

(٢) الحلية (٦/ ٣٢٥).

هذا يوضح أن مذهب مالك رحمه الله هو أن الكبائر أهون من الاشتغال بعلم الكلام، فالكبيرة من تاب منها لم يبق في قلبه أثر لها، أما علم الكلام فإنه يورث الشك والارتياب والحيرة والاضطراب.

عاقبة الكلام الزندقة:

(٣) وأخرج الهروي عن إسحاق بن عيسى[١] قال: «قال مالك: من طلب الدين بالكلام تزندق، ومن طلب المال بالكيمياء أفلس، ومن طلب غريب الحديث كذب»[٢].

(٤) وأخرج الخطيب عن إسحاق بن عيسى قال: «سمعت مالك بن أنس يعيب الجدال في الدين ويقول: كلما جاءنا رجل أجدل من رجل أرادنا أن نرد ما جاء به جبريل إلى النبي ﷺ»[٣].

---

(١) هو إسحاق بن عيسى بن نجيح البغدادي قال عنه ابن حجر: «صدوق مات سنة ٢١٤هـ» تقريب التهذيب (١/ ٦٠) انظر ترجمته في تهذيب التهذيب (١/ ٢٤٥).

(٢) ذم الكلام (ق ١٧٣-أ).

(٣) شرف أصحاب الحديث ص ٥.

التعليق :

هذا هو حال أهل الكلام كلما جاء رجل أعلم بصنعة الكلام من غيره انقادوا له، فينقض كلام من سبقه، ولهذا فهم مترددون متخبطون، فترى ابن رشد ينقض كلام الغزالي، والرازي ينتقض كلام الآمدي والجويني، وهكذا ترى التفتازاني والجرجاني والنسفي وغيرهم من الماتريدية والأشعرية قد وقعوا في الصفات وتحريف نصوصها .

لعنه لعمرو بن عبيد :

(٥) وأخرج الهروي عن عبد الرحمن بن مهدي قال : «دخلت على مالك وعنده رجل يسأله فقال : لعلك من أصحاب عمرو بن عبيد ، لعن الله عمرو بن عبيد فإنه ابتدع هذه البدعة من الكلام، ولو كان الكلام علماً لتكلم فيه الصحابة والتابعون كما تكلموا في الأحكام والشرائع »[١] .

هذا اللعن من الإمام مالك لعمرو بن عبيد ، وما ثبت عن أبي حنيفة مثله ، إنما هو لشدة خطر بدعة عمرو وأشباهه ، على

---

(١) ذم الكلام (ق ١٧٣ ـ ب) .

المسلمين بما فتحوه من الكلام والبدع، ومقصوده من الكلام هو ذلك العلم الموروث عن اليونان وغيرهم، الذي يفتح باب التشكيك في العقائد والغيبيات، ومن هنا يعلم خطأ من أطلقوا على العقيدة علم الكلام، حتى إن أقسام العقيدة في بعض الجامعات أصبحت تسمى أقسام علم الكلام والفلسفة، فالله المستعان على غربة الدين وبعد المسلمين عن دينهم.

حتى إن أحدهم إذا سئل عن مذهبه في الفقه قال: حنفي أو مالكي أو غيره، ويتعصب لإمامه في الفروع، وهو يخالفه في الأصول والعقائد، فالله المستعان.

تحذيره من البدع وأهلها:

(٦) وأخرج الهروي عن أشهب بن عبد العزيز قال: «سمعت مالكًا يقول: إيّاكم والبدع، قيل يا أبا عبد الله، وما البدع؟ قال: أهل البدع الذين يتكلمون في أسماء الله وصفاته، وكلامه وعِلْمه وقدرته، ولا يسكتون عمّا سكت عنه الصحابة والتابعون لهم بإحسان»[١].

يقصد رحمه الله بالذين يتكلمون في أسماء الله وصفاته،

---

(١) ذم الكلام (ق ١٧٣ - أ).

وكلامه وعلمه وقدرته، الذين يتكلمون بغير علم ويذهبون إلى التعطيل وغيره، وليس الذين يتكلمونْ بقصد التقرير والإثبات، فإن هؤلاء لا يُذمون.

(٧) وأخرج أبو نعيم عن الشافعي قال: «كان مالك بن أنس إذا جاءه بعض أهل الأهواء قال: أما إني على بيّنة من ربي وديني، وأما أنت فشاكٌ فاذهب إلى شاكٍّ فخاصمه»(١).

فهذا يوضح أن المتبعين لعلم الكلام دائماً أهل حيرة وشك واضطراب، ويتندمون عند الموت حتى قال قائلهم:

نِهَايةُ إِقْدامِ العقُولِ عِقَال
وغايةُ سَعْيِ العالمينَ ضلالُ
وأَرواحُنا فِي وَحْشَةٍ من جسُومِنا
وَغَايةُ دُنيانا أَذىً وَوَبَالُ
وَلَمْ نستفدْ مِنْ بَحْثِنا طُولَ عُمْرِنا
سِوَى أَنْ جَمَعْنَا فِيهِ قِيلَ وَقَالُوا(٢)

(١) الحلية (٦/ ٣٢٤).
(٢) نهاية الإقدام ص ٣.

وأما أهل السنة فهم أهل إيمان ويقين، لا يشكون ولا يتحيرون، لأخذهم بالسنة وتركهم للأهواء

موقفه من كتب الكلام:

(٨) روى ابن عبد البر عن محمد بن أحمد بن خويز منداد المصري المالكي قال في كتاب الإجارات من كتابه الخلاف: قال مالك: لا تجوز الإجارات في شيء من كتب الأهواء والبدع والتنجيم، وذكر كتباً ثم قال: وكتب أهل الأهواء والبدع عند أصحابنا هي كتب أصحاب الكلام من المعتزلة وغيرهم وتفسخ إجارة في ذلك »(١).

التعليق:

إذا كان الإمام مالك رحمه الله، يرى عدم جواز الإجارة في كتب أهل الكلام، فكيف بمن يجعلونها واجبة التدريس على طلاب الجامعات وغيرهم، ويختبرونهم فيها، ويعظمون ما فيها؟، وكيف يجوز بيعها والتجارة فيها؟

وبعدُ: فهذه لمحات من موقف الإمام مالك وأقواله في التوحيد والصحابة والإيمان وعلم الكلام وغيره.

---

(١) جامع بيان العلم وفضله ص ٤١٦، ٤١٧ ط/ دار الكتب الإسلامية.

الخلاصة:

شدَّد الإمام مالك في الإنكار على المشتغلين بعلم الكلام، ونهى عن مجادلتهم، حتى إنه ذهب إلى بطلان الإجارة في كتب المتكلمين ونحوها.

المناقشة:

س١: ما موقف مالك من علم الكلام والمتكلمين؟

س٢: هل كان مالك يحب مجادلة المتكلمين؟

س٣: هل يرى مالك أن علم الكلام يؤدي إلى اليقين والإيمان؟

* * *

المبحث السادس

نهيه عن الشرك ووسائله

أولاً - نهيه عن وسائل الشرك:

وجاء عن الإمام مالك وبعض أتباعه، النهي عن ما هو من وسائل الشرك:

كتجصيص القبور[1]، وتعليتها[2]، والكتابة عليها[3]،

---

(١) لما أخرجه مسلم وغيره قال: «نهى رسول الله ﷺ عن تجصيص القبر، وأن يقعد عليه، وأن يبنى عليه بناء». ولمعرفة موقف مالك رحمه الله وكثير من أتباعه من هذه القضايا راجع المدونة ١/١٨٩ كتاب الكافي لابن عبد البر ١/ ٢٨٣، وتنوير المقالة ٣/ ٤٠، والثمر الداني ٢٣٠، وتفسير القرطبي ١٠/ ٣٨٠.

(٢) لما أخرجه مسلم وغيره عن جابر: قال: نهى رسول الله ﷺ عن تجصيص القبر، وأن يقعد عليه، وأن يبنى عليه بناءٌ». ولمعرفة موقف مالك رحمه الله وأتباعه من هذه القضايا راجع المدونة ١/ ١٨٩، وتنوير المقالة ٣/ ٤٠، والثمر الداني ص ٢٣٠، وتفسير القرطبي ١٠/ ٣٨٠، ٣٨١.

(٣) لما أخرجه أبو داود والترمذي وغيرهما من حديث جابر أن النبي ﷺ: «نهى أن تجصص القبور، وأن يكتب عليها» ولمعرفة موقف الإمام مالك رحمه الله، وكثير من أتباعه راجع فتح المجيد ص ٣٢٣.

والبناء عليها(١)، واتخاذها مساجد(٢)، واستقبالها للدعاء(٣)، والسجود عليها(٤)، والصلاة عليها(٥)، وشد الرحال إلى غير المساجد الثلاثة(٦).

---

(١) لما أخرجه مسلم عن جابر قال: «نهى رسول الله ﷺ عن تجصيص القبر، وأن يقعد عليها وأن ينبى عليه بناء» ولمعرفة موقف مالك رحمه الله وأتباعه راجع المدونة ١/ ١٨٩ المعيار المعرب ١/ ٣١٧، ٣١٨ وتنوير المقالة ٣/ ٣٩، والثمر الداني ٢٣١، وتفسير القرطبي ١٠/ ٣٧٩، فتح المجيد ص ٣٢٣، تيسير العزيز الحمد ص ٣٢٣، ٣٢٤، والكافي لابن عبد البر ١/ ٢٨٣.

(٢) قال النبي ﷺ: «لعنة الله على اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد يحذر ما صنعوا» متفق عليه، وقال: «ألا إن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، إني أنهاكم عن ذلك» أخرجه مسلم وغيره. ولمعرفة موقف المالكية في التمهيد ١/ ١٦٨، ٥، ٤٥، والمنتقى ٧/١٩٥ وتفسير القرطبي ١٠/ ٣٨٠، شرح موطأ مالك للزرقاني ٤/ ٢٣٣، ١٢/ ٣٥١، وتيسير العزيز الحميد ص ٣٤٠، والمنتقى ١/ ٣٠٦، ٣٠٧.

(٣) أخرج مسلم وغيره أن النبي ﷺ قال: «لا تجلسوا على القبور، ولا تصلوا عليها».

ولمعرفة موقف المالكية راجع كتاب صيانة الإنسان ص ٢٦٤، وفتح المنان ص ٣٥٨، ٣٥٩ وتيسير العزيز الحميد ص ٣٥٨.

(٤) ولمعرفة موقف المالكية راجع التمهيد ٦/ ٣٨٣، ١/ ١٦٧، ٥/ ٤٥.

(٥) أخرج مسلم وغيره أن النبي ﷺ، قال: «لا تجلسوا على القبور ولا تصلوا عليها»، ولمعرفة موقف المالكية راجع: مقدمة ابن رشد ص ١٧٤، والتمهيد ١/ ١٦٧، ٥/ ٢٥، ٦/ ٢٨٣، وتفسير القرطبي ١٠/ ٣٧٩.

(٦) لقول النبي ﷺ: لا تعمل المطي إلا إلي ثلاثة مساجد...».

ولمعرفة موقف المالكية ارجع إلى المعلم ١٢/ ٨٢، وشرح الزرقاني لمختصر خليل ٣/ ٩٣ وتيسير العزيز الحميد ٣٦١، وشرح الزرقاني للموطأ ١/ ٢٢٤، ٢٢٥.

قال القرطبي: «التمسك بسد الذرائع وحمايتها هو مذهب مالك وأصحابه وأحمد بن حنبل في رواية عنه، وقد دل على هذا الأصل الكتاب والسنة»[1].

وقال كذلك: «ولهذا بالغ المسلمون في سد الذريعة في قبر النبي ﷺ، فأعلوا حيطان تربته، وسدوا المداخل إليها، وجعلوها محدقة بقبره ﷺ، خافوا أن يتخذ موضع قبره قِبلَة إذا كان مستقبل المصلين، فتصور الصلاة إليه بصورة العبادة، فبنوا جدارين من ركني القبر وحرفهما، حتى التقيا على زاوية مثلثة من ناحية الشمال، حتى لا يتمكن أحد من استقبال قبره»[2].

فرحم الله سلف هذه الأمة على ما قدموه من جهد لحماية جناب التوحيد، وسد كل ذرائع الشرك، حتى في أدق الأمور.

وقال الإمام مالك: «أكره تجصيص القبور والبناء عليها وهذه الحجارة التي يبنى عليها»[3].

---

(١) تفسير القرطبي ١٢/ ٥٧، ٥٨.

(٢) قرة عيون الموحدين ص ١٣٦.

(٣) المدونة ١/ ١٨٩.

والكراهية التي يشير إليها الإمام، يقصد بها كراهة التحريم، لما ورد من النهي عن هذه الأمور كما لا يخفى.

وقال ابن أبي شامة: «كان مالك وغيره من علماء المدينة يكرهون إتيان تلك المساجد وتلك الآثار في المدينة ما عدا قباء وأحد»[1].

أقول: وهذا من شدة احتياطهم في حماية التوحيد، فإنهم كرهوا كل ما لم يرد فيه نص، خوفاً من ذرائع الشرك فكيف بمن يذهب إلى المساجد السبعة، وإلى مسجد القبلتين وغيره.

وقال ابن عبد الباقي في شرح الموطأ: «روى أشهب عن مالك أنه كره لذلك أن يدفن في المسجد. قال: «وإذا منع من ذلك فسائر آثاره أحرى بذلك، وقد كره مالك طلب موضع شجرة بيعة الرضوان مخالفة لليهود والنصارى»[2].

قلت: والمقصود بالكراهية هنا للدفن هي كراهية التحريم، وكذلك يتضح تشدده في الأشياء التي فيها مشابهة لليهود

---

(١) الباعث على إنكار البدع والحوادث ص ٩٦، ٩٧، وكتاب ابن وضاح رقم ١١٣.

(٢) تيسير العزيز الحميد ص ٣٤٠.

والنصارى، والمقصود ليس ترك التشبه بهم فقط، ولكنه لما ورد أيضا من العلل، والحكم في منع هذه الأشياء، حذراً من الشرك وحماية لجناب التوحيد.

وقال القرطبي: «وقال علماؤنا وهذا يحرم على المسلمين أن يتخذوا قبور الأنبياء والعلماء مساجد»(١).

أقول: وانظر إلى ما عليه حال الناس اليوم من الافتتان بالأضرحة وأهلها، فكلما هلك فيهم عالم أو صالح صنعوا له ضريحاً، وبنوا عليه مسجداً، أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة.

وقال ابن رشد: «إن فات ـ يعني صلاة الجنازة ـ لم يصل عليه، لئلا يكون ذريعة للصلاة على القبور وهو مذهب أشهب وسحنون»(٢).

وقال ابن رشد كذلك: «كره مالك البناء على القبر وجعل البلاطة المكتوبة»(٣).

---

(١) تفسير القرطبي ١٠/ ٣٨٠.

(٢) مقدمة ابن رشد ص ١٧٤.

(٣) فتح المجيد ص ٣٢٣، ولعله يقصد ما يسمى اليوم بشاهد القبور وهو رخام يكتب عليه اسم الميت وتاريخ وفاته وغير ذلك. والله أعلم.

قال القرطبي: في شرح حديث النبي ﷺ: «لا تصلوا إلى القبور ولا تجلسوا عليها» أي لا تتخذوها قبلة، فتصلوا عليها أو إليها كما فعل اليهود والنصارى، فيؤدي إلى عبادة من فيها كما كان السبب في عبادة الأصنام، فحذَّر النبي ﷺ عن مثل ذلك، وسدّ الزرائع المؤدِّية إلى ذلك»(١) .

إلى أن قال: «وأما تعلية البناء الكثير على نحو ما كان في الجاهلية تفعله تفخيماً وتعظيماً، فذلك يهدم ويزال، فإن فيه استعمال زينة الدنيا في أول منازل الآخرة، وتشبها بمن كان يعظِّم القبور ويعبدها»(٢) .

وقال الإمام مالك: «لا أرى أن يقف عند قبر النبي ﷺ، يدعو ولكن يسلم ويمضي» ذكره إسماعيل بن إسحاق في المبسوط، وإسناده صحيح كما في صيانة الإنسان(٣) .

قلت: وهذا يوضح مدى احتياط مالك رحمه الله للتوحيد، وتحذيره من الشرك حتى لو كان يقتضي ذلك التحرز من الغلو في تعظيم قبر النبي ﷺ.

---

(١) تفسير القرطبي (١٠/ ٣٨٠).

(٢) تفسير القرطبي (١٠/ ٣٨١).

(٣) ص ٢٦٤ فتح المنان ص ٣٥٨.

وقال أيضاً في المبسوط: «لا بأس لمن قدم من سفر أو خرج أن يقف على قبر النبي ﷺ، ويدعو له ولأبي بكر وعمر.

أقول: والمقصود بذلك الدعاء لهم، وليس قصد استقبال القبر للدعاء، بل يستقبل قبلة الصلاة ويدعو لما ثبت عن مالك وغيره من النهي عن ذلك والتحذير منه.

قيل له: فإن ناساً من أهل المدينة لا يقدمون من سفر، ولا يريدونه يفعلون ذلك في اليوم مرة أو أكثر، وربما وقفوا في الجمعة أو في الأيام المرة أو المرتين أو أكثر عند القبر، فيسلمون ويدعون ساعة، فقال: لم يبلغني هذا عن أحد من أهل الفقه ببلدنا وتركه واسع، ولا يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أَصْلَح أولها، ولم يبلغني عن أول هذه الأمة وصدرها أنهم كانوا يفعلون ذلك، ويكره إلا لمن جاء من سفر أو أراده»(١).

تنبيه: وأما الحكاية التي ذكرها القاضي عياض عن محمد ابن حميد قال: «ناظر أبو جعفر المنصور أميرُ المؤمنين مالكًا في مسجد رسول الله ﷺ، قال له مالك يا أمير المؤمنين لا

---

(١) فتح المنان ص ٣٥٨.

ترفع صوتك في هذا المسجد، فإن الله تعالى أدب قومًا وقال: ﴿ لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ... ﴾ [الحجرات: ٢]

ثم قال: فهذه الحكاية على هذا الوجه، إما أن تكون ضعيفة أو محرفة»[١].

تنبيه آخر: أما الحكاية التي رواها القاضي عياض بإسناده عن مالك في قصته مع المنصور وأنه قال لمالك: يا أبا عبد الله أستقبل القبلة وأدعو، أم أستقبل رسول الله ﷺ؟ قال: ولِمَ تصرف وجهك عنه، وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم إلى الله يوم القيامة بل استقبله، واستشفع به يشفعه الله فيك»[٢].

قال صاحب تيسير العزيز الحميد: «فهذه الرواية ضعيفة أوموضوعة؛ لأن في إسنادها من يتهم محمد بن حميد»[٣].

وهذه طريقة أهل البدع والأهواء يخترعون حكايات وقصصًا لا أصل لها؛ لتأييد ما يفعلونه من البدع، وما يذهبون إليه من الأهواء الباطلة.

---

(١) انظر صيانة الإنسان ص ٢٥٥، وفتح المنان ص ٣٥٩.

(٢) تيسير العزيز الحميد ص ٣٥٨.

(٣) تيسير العزيز الحميد ص ٣٥٨.

تنبيه ثالث: وأما ما روىٰ ابن زبالة وهو في أخبار المدينة عن عمر بن هارون عن سلمة بن وردان وهما ساقطان قال: رأيت مالك بن أنس يسلم على النبي ﷺ، ثم يسند ظهره إلى جدار القبر ثم يدعو(١) فالرجلان ساقطان كما في تيسير العزيز الحميد.

تنبيه رابع: وأما الحكاية في تلاوة مالك هذه الآية: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ...﴾ [النساء: ٦٤]. فهو والله أعلم باطل، فإن هذه لم يذكرها أحد من الأمة فيما أعلم، ولم يذكر أحد منهم أنه استحب أن يسأل بعد الموت لا استغفاراً ولا غيره، وكلامه المنصوص وأمثاله ينافي هذا، قاله صاحب فتح المنان(٢).

وقال القرطبي: «وأما السنة فأحاديث كثيرة ثابتة صحيحة منها حديث عائشة رضي الله عنها: أن أم حبيبة وأم سلمة - رضي الله عنهما - ذكرتا كنيسةً رأيتاها بالحبشة فيها تصاوير فذكرتا ذلك لرسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «إن أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح، فمات بنوا على قبره

---

(١) تيسير العزيز الحميد ص ٣٥٩.

(٢) ص ٣٦٠.

مسجداً، وصوروا فيه تلك الصور، أولئك شرار الخلق عند الله». أخرجه البخاري[1] ومسلم.

قال علماؤنا: ففعل ذلك أوائلهم؛ ليتأسوا برؤية تلك الصور، ويتذكروا أحوالهم الصالحة، فيجتهدوا كاجتهادهم، ويعبدوا الله عز وجل عند قبورهم، فمضت لهم بذلك أزمان، ثم إنه خلف من بعدهم خلوف جهلوا أغراضهم، ووسوس لهم الشيطان أن آباءكم وأجدادكم كانوا يعبدون هذه الصور فعبدوها، فحذر النبي ﷺ عن مثل ذلك، وشدد النكير والوعيد على من فعل ذلك»[2].

قلت: وهذه كانت بداية الشرك في قوم نوح عليه السلام، كما ثبت عن ابن عباس وغيره في قصة ودٍّ وسواع ويغوث ويعوق ونسر؛ فتأمل.

وقال ابن الحاج في المدخل: «لا يجوز الطواف حول

---

(١) أخرجه البخاري (٣/ ٢٤٧) ح ١٣٤١ في الجنائز باب بناء المسجد على القبر ومسلم (١/ ٣٧٥) ح (٥٢٨) في المساجد ومواضع الصلاة باب النهي عن بناء المساجد على القبور من طريق هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها.

(٢) تفسير القرطبي ٢/ ٥٨.

الأضرحة، فإنه لا يطاف إلا بالبيت العتيق، وكذا لم يشرع التقبيل والاستلام إلا بالبيت العتيق، وكذا لم يشرع التقبيل والاستلام إلا للحجر الأسود»[١].

قلت: الطواف بالقبور، واستلامها، وتقبيلها، كما يفعل أهل الإشراك والابتداع عند قبر الحسين والبدوي والسيدة زينب وغيرهم، وكل هذه بدع لا أصل لها في دين الله.

وقال الطرطوشي: «وروى محمد بن وضاح أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أمر بقطع الشجرة التي بويع تحتها النبي ﷺ، لأن الناس كانوا يذهبون تحتها فخاف عمر الفتنة عليهم...

قال: وكان مالك وغيره من علماء المدينة يكرهون إتيان تلك المساجد، وتلك الآثار التي بالمدينة، ما عدا قباء وأُحُد»[٢].

وقال الطرطوشي: «قال عمر بن الخطاب إنما هلك من كان قبلكم بمثل هذا، كانوا يتبعون آثار أنبيائهم ويتخذونها كنائس وبيعًا، فمن أدركته الصلاة منكم في هذه المساجد

(١) المدخل كما في المشاهدات المعصومية ص ٧٣.

(٢) كتاب الحوادث والبدع ٢٩٤، ٢٩٥.

فليصل، ومن لم تدركه فليمض، ولا يتعمدها»[1] .

فرضي الله عن عمر، وكم كان حرصه على حماية التوحيد، فنهىٰ عن إتيان هذه المساجد خصوصاً للصلاة، وكيف قطع تلك الشجرة؛ خشية أن يفتن بها الناس، فالواجب على أولياء الأمور في كل مكان أن يقتدوا به رضي الله عنه، ويسلكوا سبيله .

الخلاصة :

١ـ اشتد مالك رحمه الله في الاحتياط لجانب التوحيد، وسد ذرائع الشرك .

٢ـ رأى مالك وجوب الابتعاد عن كل المحدثات، وحذر من الغلو المؤدي إلى الإشراك .

٣ـ اهتم علماء المالكية جداً بالتحذير من وسائل الشرك المتنوعة، وخاصة الغلو في الصالحين، واتباع آثارهم .

---

(١) كتاب الحوادث والبدع ٣٠٨، ٣٠٩ .

المناقشة:

س١: اذكر نماذج توضح حرص الإمام مالك على سدّ منافذ الشرك.

س٢: هات بعض النصوص التي توضح حرص علماء المالكية على حماية جانب التوحيد.

* * *

ثانيًا: نماذج من الشرك حذر منها الإمام مالك وبعض أتباعه:

جاء عن الإمام مالك وبعض أتباعه، النهي عن أنواع من الشرك الأكبر والأصغر، ودعاء[1] غير الله والاستغاثة بغير الله[2]، والنذر لغير الله[3]، والذبح لغير

---

(١) لقوله تعالى: ﴿وقال ربكم ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين﴾ [غافر: ٦٠]، وقوله تعالى: ﴿ومن أضل ممن يدعوا من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون﴾ [الأحقاف: ٥]. وقول النبي ﷺ: «إن الدعاء هو العبادة».

وللمزيد من التعرف على أقوال المالكية انظر: رسالة الشرك لمبارك الميلي (ص ١٩٢).

والتحرير والتنوير ٢٤ / ١٨١، ٢٦ / ١١.

(٢) قال تعالى: ﴿إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم...﴾ [الأنفال: ٩]، وقال: ﴿وهما يستغيثان الله ويلك آمن...﴾ [الأحقاف: ١٧]. التحرير والتنوير ٩ / ٢٧٤، ٢٧٥ / ٢٦ / ٣٩.

(٣) قال تعالى: ﴿وليوفوا نذورهم...﴾ [الحج: ٢٩]. فالنذر عبادة لا تنبغي إلا لله تعالى، التحرير والتنوير ١٧ / ٢٤٨، وانظر تيسير العزيز الحميد (ص: ٢٠٧)، رسالة الشرك للميلي (ص: ٢٦٨)، ولا يجوز النذر لولي أو نبي أوغيرهما، وإلا فإن هذا شرك لأنه صرف للعبادة لغير الله تعالى، لا كما يفعله كثير من الجهال بالنذر لقبر البدوي أو الحسين، أو الجيلاني أو غيرهم، فإن هذا شرك بالله تعالى، ولا يسوغ أي تأويل لذلك الفعل أو محاولة التلاعب باللفظ والقول بأن «النذر لله والثواب للولي» فهذا كلام باطل لا يستجيزه عقل صريح.

الله[١]، واعتقاد أن الأولياء لهم تصرف في الكون مع الله[٢]، أو اعتقـاد أن أحداً يعلـم الغيب[٣]، أو الحلف بغير الله[٤]

---

(١) لقوله تعالى: ﴿فصل لربك وانحر﴾ [الكوثر: ٢]، وقوله تعالى: ﴿قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين﴾ [الأنعام: ١٦٢]، فالذبح عبادة لا تنبغي إلا لله وعلى اسم الله، ولا يجوز أكل ما لم يذكر اسم الله عليه.
وانظر: مختصر خليل (٣/ ١٣٠)، وتفسير القرطبي (٢/ ٢٢٤) التحرير والتنوير ٣٠/ ٥٧٤.

(٢) وهذا شركٌ في الربوبية وقد نفى الله تعالى كل أنواع التصرف لغيره بقوله: ﴿قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير * ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له» [سبأ: ٢٢، ٢٣]. وقد سبق الكلام على هذه الآية بالتفصيل في المبحث الثاني. وانظر: شرح الموطأ للزرقاني (ص ١/ ٣٤٧)، وشرح الموطأ للباجي (١/ ٣٣٤). والتحرير والتنوير ٢٢/ ١٨٥، ١٩١١.

(٣) لقوله تعالى: ﴿عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً﴾ [الجن: ٢٦]، وقوله تعالى: ﴿قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله...﴾ [النمل: ٦٥].
وانظر: أحكام القرآن لابن العربي (٢/ ٧٣٨، ٧٣٩) وتفسير القرطبي (١/ ٢٩٠)، ورسالة الشرك للميلي (ص:١٣٧).

(٤) لقوله ﷺ: من حلف بغير الله فقد أشرك» وفي لفظ: «فقد كفر» وانظر التمهيد (١٤/ ٣٦: ٣٦٧)، وتفسير القرطبي ١٠/ ٤٠) وشرح الصغير للدرديري (٢/ ٢٠٣) وتفسير القرطبي (١٠/ ٤٠)، و(٦/ ٢٧٠: ٢٧١) والمقدمات لابن رشد (٣٠٨: ٣٠٩) وشرح رزق على متن الرسالة (٢/ ١٥)، والمعلم (٢/ ٢٤٠). شرح الزرقاني على مختصر خليل ٣/ ٥٣ كتاب الكافي في فقه أهل المدينة المالكي ١/ ٤٤٨.

أو اعتقاد أن للكواكب تأثيراً في إنزال المطر[1]، والتوكُّل على غير الله[2].

قال ابن العربي: «مقامات الغيب الخمسة التي لا يعلمها إلا الله، لا أمارة عليها ولا علامة عليها، إلا ما أخبربه الصادق المجتبى لاطلاع الغيب من أمارات الساعة، والأربع سواها لا أمارة عليها، فكل من قال: إنه ينزل الغيث غداً فهو كافر، أخبر عنه بأمارات ادَّعاها أو بقول مطلق، ومن قال: إنَّه يعلمُ ما في الرحم، فهو كافر...

وأما من ادَّعى علم الكسب في مستقبل العمر فهو كافر، أو أخبر عن الكوائن الجملية أو المفصلة فيما يكون قبل أن يكون، فلا ريبة في كفره أيضاً. فأما من أخبر عن كسوف الشمس والقمر فقد قال علماؤنا: يؤدَّب ويسجن، ولا يكفر، أما عدم تكفيره فلأن جماعة قالوا: إنه أمر يدرك بالحساب، وتقدير المنازل حسب ما أخبر الله سبحان في قوله جلَّ وعلا: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ...﴾ [يس: ٣٩]، لحسابهم له،

---

(١) المنتقى شرح موطأ مالك ١/ ٣٣٤، وشرح الزرقاني لموطأ مالك.

(٢) لقوله تعالى: ﴿وعلي ربهم يتوكلون﴾ [الأنفال: ٢] انظر: التحرير والتنوير لابن عاشور ٩/ ٢٥٩.

وإخبارهم عنه وصدقهم فيه، توقف علماؤنا عن الحكم بتكفيرهم، وأما أدبُهم فلأنهم يُدخلون الشك على العامة في تعليق العلم بالغيب المستأنف، ولا يدرون قدر الفرق بين هذا وغيره، فتتشوش عقائدهم في الدين، وتتزلزل قواعدهم في اليقين، فَأُدبوا حتى يُسرُّوا ذلك إذا عرفوه ولا يعلنوا»[1].

التعليق: ومن هنا يتضح كفر من ادعى علم الغيب عن طريق الفنجان والكف وغيره، ويتضح كذلك تشدد السلف في حماية جانب التوحيد مما يخدشه.

وقال ابن عبد البر:

«لا يجوز الحلف بغير الله - عز وجل - في شيء من الأشياء، ولا على حال من الأحوال، وهذا أمر مجمع عليه، وقد روى سعيد بن عبيدة عن ابن عمر فيه حديثا شديداً أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «من حلف بغير الله فقد أشرك» ذكره أبو داود[2] وغيره.

---

(١) أحكام القرآن ٢ / ٧٣٨، ٧٣٩.

(٢) أحمد ٢ / ٣٤-١٢٥، والترمذي ٤ / ١١٠ ح ١٥٣٥ في النذور والأيمان، وأبو داود ٣ / ٥٧٠، ح ٣٢٥١ في الأيمان باب في كراهية الحلف بالآباء، وابن حبان ٦ / ٢٧٨ ح ٤٣٤٣ والحاكم ٤ / ٢٩٧، وقال صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وقال الترمذي: حديث حسن جميعهم =

وروى محمد بن سيرين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تحلفوا بآبائكم، ولا بأمهاتكم، ولا بالأنداد، ولا تحلفوا إلا بالله، ولا تحلفوا بالله إلا وأنتم صادقون»[1] ..»[2].

قلت: وهذا الحلف بغير الله شرك أصغر إن لم يكن مقترنًا بتعظيم المحلوف به، فأما إن كان معه تعظيم له فإنه يكون شركًا أكبر.

وقال ابن رشد: «والمحظورة أن يحلف باللات، والعزى، والطواغيت، أو بشيء مما يعبد من دون الله تعالى لأن الحلف بالشيء تعظيم له، والتعظيم لهذه الأشياء كفر بالله تعالى»[3].

قلت: ليس المقصود هذه المعبودات فقط، بل ورد النهي عن الحلف بغير الله مطلقًا، سواء حلف بأبيه أو

= من طريق سعد بن عبيدة عن ابن عمر مرفوعًا، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير ٢/ ١١٦٧ ح ٦٢٠٤.

(١) أخرجه أبو داود ٣/ ٥٦٩ ح ٣٢٤٨ في الأيمان باب في كراهية الحلف بالآباء من رواية محمد بن سرين عن أبي هريرة مرفوعًا.

(٢) التمهيد لابن عبد البر ١٤/ ٣٦٦، ٣٦٧.

(٣) مقدمات ابن رشد ص: ٣٠٩.

بعمره أو غير ذلك.

وقال القرطبي: «في تفسيره لقول الله تعالى: ﴿وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ...﴾ [البقرة: ١٧٣]. أي ذكر عليه غير اسم الله تعالى، وهي ذبيحة المجوسي والوثني والمعطل، فالوثني يذبح للوثن، والمجوسي للنار، والمعطل لا يعتقد شيئًا فيذبح لنفسه، ولا خلاف بين العلماء أن ما ذبح المجوسي لناره، والوثني لوثنه لا يؤكل.. ومنه إهلال الصبي واستهلاله وصياحه عند ولادته، وقال ابن عباس وغيره: المراد ما ذبح للأنصاب والأوثان.. وجرت عادة العرب بالصياح باسم المقصود بالذبيحة، وغلب ذلك في استعمالهم حتى عبر عن النية التي هي علة التحريم، ألا ترى أن علي بن أبي طالب رضى الله عنه، راعى النية في الإبل التي نحرها غالب أبو الفرزدق فقال: إنها مما أهل لغير الله به فتركها الناس، قال ابن عطية: ورأيت في أخبار الحسن بن أبي الحسن أنه سئل عن امرأة صنعت للعبها عرسًا، فنحرت جَزُورًا، فقال الحسن: لا يحل أكلها فإنها إنما نُحرت لصنم»[1].

---

(١) تفسير القرطبي ٢/ ٢٢٣، ٢٢٤.

جاء في المدونة كما في شرح الزرقاني لمختصر خليل: «سوق الهدايا لغير مكة ضلال»[1].

أقول: فكيف بمن ينحرون الذبائح لقبور الصالحين ويذبحونها باسمهم، لا شك أنها لا يحل أكلها، وأنها مما أهل لغير الله به.

وقال الميلي: «دعاءِ غير الله.. فهو شرك صريح وكفر قبيح، وله نوعان:

أحدهما: غير الله مع الله، كالذي يقول: يا ربي، ويا شيخي، يا ربي وجدي، يا الله وناسه، يا الله وسيدي عبد القادر، وسمعت كثيراً يحكون أنهم كثيراً ما يسمعون فلاناً يقول: يا ربي يا سيدي يوسف اغفر لي، ويوسف هذا من أولاد ابن الدرويش إحدى فصائل أولاد العباد.. وإطلاق الشرك على هذا النوع واضح لأن الداعي عطف غير الله على الله بالواو ثابتة أو محذوفة، وهي تقتضي مشاركة ما بعدها في الحكم، والحكم المشترك فيه هنا هو عبادة الدعاء.

---

(١) شرح مختصر خليل للزرقاني ٣/ ١٣٠.

النوع الثاني: دعاء غير الله من دون الله كالذي يقول: يا رجال الله[1]، يا ديوان الصالحين، وإطلاق الشرك على هذا النوع باعتبار أن الداعي وإن اقتصر على المخلوق في اللفظ لم ينكر الله، ولم يبرأ منه في العقد فكأن الله في كلامه مضمر»[2].

ومن ذلك ما يقوله البعض من المبتدعة، مدد يا حسين، يا سيد يا بدوي، مدد يا عبد القادر أو يقولون عبد القادر يا جيلاني يا متصرف في الأكوان.. الخ هذه الضلالات.

وقال القاضي أبو بكر بن العربي المالكي: «قد نُهي عن النذر، وندب إلى الدعاء، ويظهر به التوجه إلى الله تعالى والتضرُّع له، وهذا بخلاف النذر، فإن فيه تأخير العبادة إلى حين الحصول، وترك العمل إلى حين الضرورة»[3].

قال ابن عبد البر: «يحرم على المسلمين أن يتخذوا قبور الأنبياء والعلماء والصالحين مساجد»[4].

---

(١) في الأصل: «يا رجال الدالة» ولعل الصواب ما أثبت.

(٢) رسالة الشرك ص ١٩٢.

(٣) تيسير العزيز الحميد ص ٢٠٧.

(٤) التمهيد ١/ ١٦٨.

وقال ابن عبد البر: «الوثن: الصنم، وهو الصورة من ذهب كان أو من فضة. أو غير ذلك من التماثيل، وكل ما يعبد من دون الله فهو وثن صنماً كان أو غير صنم، وكانت العرب تصلي إلى الأصنام وتعبدها فخشي رسول الله ﷺ، على أمته أن تصنع كما صنع بعض من مضى من الأمم: كانوا إذا مات لهم نبي عكفوا حول قبره، كما يصنع بالصنم فقال ﷺ: «اللهم لا تجعل قبري وثناً» يصلى إليه، ويسجد نحوه، ويعبد، فقد اشتد غضب الله على من فعل ذلك، وكان رسول الله ﷺ، يحذر أصحابه، وسائر أمته الذين صلّوا إلى قبور أنبيائهم، واتخذوها قبلة ومسجداً، كما صنعت الوثنية بالأوثان التي كانوا يسجدون إليها، وذلك الشرك الأكبر، فكان النبي ﷺ، يخبرهم بما في ذلك من سخط الله وغضبه، وأنه مما لا يرضاه خشية عليهم امتثال طرقهم[١].

قلت: وهذا يوضح مبلغ حرص النبي ﷺ على حماية جانب التوحيد وسد كل منافذ الشرك وإغلاق أبوابه، أداءً منه ﷺ للأمانة التي بعثه الله بها، وتبليغاً لرسالته ـ فصلوات الله وسلامه عليه.

---

(١) التمهيد ٥/ ٤٥.

وقال الميلي[1]: «مساواة هذه الأمة لمن قبلها في حكم السنن الإلهية».

إن ما وقع فيه العرب ومن قبلهم يقع فيه غيرهم بعدهم إذا ما جهلوا مثلهم أصول الدِّين، وبالغوا في التبرك بالصالحين، فإن الله يقول: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً﴾ [الفتح: ٢٣]. وعلماء الاجتماع يقولون: «التاريخ يعيد نفسه»، والمتكلمون يحكمون بأن ما جرى على المثل يجري على المماثل.

فإذا كان مجموع المسلمين قد انتهوا في الدِّين إلى جهالة المشركين، فمحاولة تبرئتهم من الشرك غش وتضليل وجحد للشريعة وتعطيل.

ومن هنا نفهم العلة من النهي عن مشابهة اليهود والنصارى، فإن تقليدهم في أقوالهم وأفعالهم يفضي إلى نفس النتائج ما دامت المقدمات واحدة، فليست هذه الأمة معصومة إن وقعت فيما وقع فيه من سبقوها.

---

(١) رسالة الشرك للميلي ١٠٨.

صور من الوثنية الحاضرة:

« ... ألست ترى في أوساطهم قباباً تبذل في تشييدها الأموال، وتشد لزيارتها الرحال، أم لست تسمع منهم استغاثات وطلب حاجات من الغائبين والأموات؟! أم لم تعلم بدور تنعت بدار الضمان تُشتَرى ضماناتها بالأثمان؟ أم لم تجتمع بذرية نسب المرابطين إعطاؤها بقوة غيبية. أم لم تتكرر عليك مناظر مكلفين إباحيين يقدَّسون بصفتهم مرابطين أو طرقيين، هذا إلي اجتماعات تنتهك فيها كل الحرمات باسم الزردات، أو تحت ستار الاعتقادات والدعوة إلى أوضاع مبتدعة صدَّت الناس عن اتباع السنة المطهرة. والخبيرَ بحياة أهل عصره العالم بأصول دينه لا يتردد في ظهور الشرك وانتشاره، وتعدد مظاهره وآثاره»[1].

وقال: «وإذا قيل للناس إن هذه الضرائح والمزارات من الأوثان، قالوا: إنكم تسبون الصالحين! يا إخواننا، افهموا لغة العرب والدين، تجدوا أن ذاك ليس من الطعن على الأولياء، فإن كل ما نصب ليعبد من دون الله فهو وثن أو صنم، وكل من عبده فهو هالك، وليس كل معبود من دون الله هالكًا.

---

(١) رسالة الشرك للميلي ١٠٨.

قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ (٩٨) لَوْ كَانَ هَٰؤُلَاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ (٩٩) لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ (١٠٠) إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨- ١٠١]. فتلك المزارات والضرائح من الأوثان، وإن كانت منسوبة إلى ولي صالح».

قلت: هكذا الحال مع أهل البدع فهم إذا جادلهم أحد ووعظهم قالوا له: أنت تكره الأولياء والصالحين، ظنًا منهم أن محبتهم تقتضي تعظيمهم وعبادتهم من دون الله تعالى.

تعيين مكان في النذر:

«... وتلك الاجتماعات عليها للزردات هي من أعياد الجاهلية، فلو فرضنا أحداً نذر لها شيئًا فهو عاصٍ بالوفاء به. فإن أضاف إليه التقرُّب من صاحبها فهو مشرك.

وقد أصبح الناس في جهالتهم الحاضرة، ينذرون لمن يعتقدون فيه من الأحياء والأموات والمزارات، الأموال والثياب والحيوانات والشموع والبخور والأطعمة وسائر المتمولات، ويعتقدون أن نذرهم سبب يقربهم من رضى المنذور له، وأن

لذلك المنذور دخلاً في حصول غرضهم، فإن حصل مطلوبهم ازدادوا تعلقًا بمن نذروا له واشتدت خشيتهم منه، وبذلوا أقصى طاقتهم في الاحتفال بالوفاء له، ولم يستسيغوا لأنفهسم التقصير أو التأخير كما استساغته جاهلية العرب في تعويض الغنم بالظباء، فالعرب مع أصنامهم أقل هيبة من هؤلاء مع أوليائهم، وإن تساوى الفريقان في اعتبار حق من ألهوه أكثر من اعتبار حق الإله الحق، ذلك أن جاهليتنا على شدة اهتمامها بحق أوليائها، منها من لا يبالي مع ذلك بالصلاة أو بالزكاة أو بهما معًا، ومن صلى وزكى لا ينكر على تاركهما ما ينكره على من تراخى في زيارة شيخ طريقة، أو إقامة زردة أو أداء وعدة، وكذلك ما حكاه القرآن عن العرب في آياته: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ﴾. [الأنعام: ١٠٠]»[1].

وقال: «إن الرزية كل الرزية، والبلية كل البلية، أمر غير ما ذكرنا من التوسل المجرد، والتشفع بمن له الشفاعة، وذلك ما صار يعتقده كثير من العوام وبعض الخواص في أهل القبور، وفي المعروفين بالصلاح من الأحياء من أنهم يقدرون على ما

---

(١) رسالة الشرك للميلي ص: ٢٦٨.

لا يقدر عليه إلا الله، جل جلاله، ويفعلون ما لا يفعله إلا الله عز وجل، حتى نطقت ألسنتهم بما انطوت عليه قلوبهم، فصاروا يدعونهم تارة مع الله وتارة استقلالاً. ويصرخون بأسمائهم، ويعظمونهم تعظيم من يملك الضر والنفع، ويخضعون لهم خضوعًا زائداً على خضوعهم عند وقوفهم بين يدي ربهم في الصلاة والدعاء»[1].

وقال: «وقد يعبرون عن هذا الضرب من التبرك بالاستمداد[2] من أرواح الصالحين، ويعتقدون أنهم أحياء في قبورهم، ويتصرفون في العالم، ويقضون حاجات قاصديهم، ويستدل مستدلهم بما ورد في حياة الأرواح مما قدَّمنا أصحه وأصرحه. فيتخذون المزارات يبنون عليها البناءات ويرون أن روح الصالح فلان هنالك، إما لأنه دفن هنالك أو جلس به، بل تجد بناءات كثيرة على مزارات عديدة، كلها منسوبة للشيخ عبد القادر الجيلاني دفين بغداد ـ رحمه الله ـ، وهو لم يعرف تلك الأمكنة ولا سمع بها. وهذه المزارات الجيلانية تجدها غربي وطن الجزائر أكثر منها في شرقه. أما أن يكون للصالح الواحد قبران فهذا نعرفه لغير الصالح.

---

(١) رسالة الشرك للميلي ص: ٢٦٨.

(٢) المقصود بالاستمداد: طلب المدد.

وأشهرهم بوطننا الشيخ محمد بن عبد الرحمن مؤسس الطريقة الرحمانية بمغربنا. ومن مظاهر هذا التبرك الاستمدادي تقبيل الجدران والمسح بالحيطان وكل ما يضاف إلى ذلك المكان»[1].

وقال: «نهى الرسول ﷺ عن الحلف بالمخلوق، فأبى أكثر الناس إلا الحلف به. وأغلظ في النهي حتى بلغ به نهي الشرك والكفر فأجروا هذه اليمين على ألسنتهم أكثر من اليمين بالله. وأمر من حلف بالله أن يصدق. فتلاعبوا باليمين الشرعية واحترموا اليمين الشركية»[2].

قلت: وهذا أمر مشاهد في حياتنا اليومية نقابل كثيراً من الناس يحلفون بغير الله ويكذبون في الحلف بالله، ويستهينون بمظاهر الشرك هذه...

وقال ابن عاشور: عن خطورة الشرك: «أكبر الاعتداء إذ هو اعتداء على المستحق المطلق العظيم، لأن من حقه أن يفرد بالعبادة اعتقاداً وعملاً وقولاً، لأن ذلك حقه على مخلوقاته، ففي الحديث: «حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به

---

(١) رسالة الشرك للميلي ص: ٢٤٤.

(٢) رسالة الشرك للميلي ص: ٢٧٧.

شيئًا»[١] . إلى أن قال: وذلك أن الشرك جمع بين الاعتراف لله بالإلهية والاعتراف لغيره بالربوبية أيضًا، ولما كان الاعتراف لغيره ظلمًا كان إيمانهم بالله مخلوطًا بظلم»[٢] .

---

(١) أخرجه البخاري كتاب التوحيد باب ما جاء في دعاء النبي ﷺ أمته إلى توحيد الله ١٣ / ٣٤٧، ح (٧٣٧٣) من حديث معاذ ابن جبل.

(٢) التحرير والتنوير ٧ / ٣٣٢، ٣٣٣.

الخلاصة:

جاء عن مالك وأصحابه النهي عن مظاهر وصور الشرك، سواء في الربوبية كاعتقاد علم الغيب في أحد، أو اعتقاد التصرف فيه، أو إسناد شيء من الأمر إليه، وكذلك في الألوهية كصرف شيءٍ من العبادات لغير الله، نحو النذر والتقرب وغيره. وكذلك النهي عن بعض صور الشرك الأصغر كالحلف بغير الله.

المناقشة:

س١: تكلم عن بعض مظاهر الشرك في الربوبية التي حذر منها مالك وأصحابه.

س٢: تكلم عن بعض مظاهر الشرك في الألوهية التي حذر منها مالك وأصحابه.

س٣: اذكر صورة من صور الشرك الأصغر التي أنكرها مالك وأصحابه رحمهم الله جميعاً.

* * *

الخاتمـــة

وهكذا تم بحمد الله الفراغ من جمع ما يتعلق بعقيدة الإمام مالك بن أنس رحمه الله إمام دار الهجرة وما ورد فيها، مع شرح ما تيسَّر منها بشكل موجز، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والله أسأل القبول فإنه خير مرجوّ ومأمول.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

بقلم

د. محمد بن عبد الرحمن الخميس

فهرس الموضوعات

الموضـــوع | الصفحــة

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس